الثقافة والمثقفون

صادق جواد سليمان

(ندوة في "مركز الحوار العربي"، فيينا، فرجينيا، الولايات المتحدة، ٢٠٠١/٢/٢١)

احترازاً من أن أشط أو أطيل، في موضوع أراه يحتمل الاثنين، دعني ابتداءً ألزم نفسي بعرض محدد. سأتحدث أولا عن الثقافة كمفهوم عام، ثم عن علاقة الثقافة بالحضارة – مستشهدا بالخبرة العربية الإسلامية على وجه الخصوص. أخير سأتحدث عن الثقافة العربية وموقعها بين الثقافات في عالم اليوم والغد، وأختِم بما أرى من دورٍ ينتظر المثقفين العرب في إحياء الثقافة العربية كجزء من مهمة الإصلاح.

ما الثقافة؟

للثقافة في المصطلح المعاصر معنيان متمايزان، لكنهما جذراً متواصلان: أحدهما عام، والآخر ذو مدلول محدد.

في المعنى العام، بالثقافة نقصد عمومَ خبرة مجتمع ما، الحاضرة والموروثة – أي النمطَ الكاملَ لحياة المجتمع، بما في ذلك لغته، أدبه، فنه، ونمط عيشه، وبما في ذلك أيضا، كسمات مهمة، نمطُ تفكيره وشعوره وسلوكه الاجتماعي، وترتيبه لأولوياته ومعالجته لقضاياه.

بهذا المعنى العام يصدق القول أن كل مجتمع، كبير أو صغير، يعيش ثقافة ما، بصرف النظر عن جدارة ثقافته، وأن هناك مئات من الثقافات عبر العالم تتمايز عن بعضها في الموروث من الخبرات والأعراف والعقائد، وتتفاوت في حاضرها بمقدار نضجها السياسي–الاجتماعي، ومحصولها من المعرفة ومهارات التنظيم والإنتاج.

بهذا المعنى العام أيضا، تشكل الثقافة أحدَ أهم مكونات هويةِ المرء – إلى جانب الوطن، والدين، والمهنة، والعرق. على أن الثقافةَ والعرقَ، وهما في العادة يتلازمان، هما الأدلُ على الهُوية، والأعمقُ جذرا في تكوينها، إذ قد يستبدل امرُؤ، متى ما شاء، وطنا بوطن، دينا بدين، منظورا فكريا بآخر، مهنة معينة بسواها، لكنه لا يملك أن ينسلّ من ثقافته أو أن يغيرَ عرقه بمجرد أن يريد.

أما المعنى الآخر للثقافة فيدل تحديدا على نصيب من معرفة وتهذيب، يتمتع به شخص ما فنقول عنه أو عنها أنه أو أنها شخص مثقف. في نفس النسق، عندما نعهد في شخص ما تفوقا في هذه الصفات نقول أنه أو أنها على ثقافة عالية. من ذلك تتضح لنا مفارقةٌ طريفة، وهي: مع أننا بالمعنى العام نستطيع أن نقول أن لكل مجتمع ثقافة، في المعنى الآخر لا نستطيع أن نقول أن كل فرد في أيما ثقافة شخص مثقف.

هذه الثنائية في معنى الثقافة نجد ما يرادفها في اللغة الإنكليزية: فكلمة **culture** – إلى جانب معان أخرى لها لا تعنينا مباشرة في هذا الحديث – تعني خبرةَ المجتمع ككل، كما تعني مستوى من صقل معرفي وخلقي لدى أيما فرد في المجتمع.

ما علاقة الثقافة بالحضارة؟

من نظرنا في التاريخ لا نجد حضارة إلا أنها نشأت وليدةَ ثقافة حية استثرت داخليا بنماء في العلم، بقدرة على التنظيم، بوفـر في الإنتاج، وبرقي في أخلاقيات الحياة. بهذا المعني، الثقافة أم الحضارة، لكن البنتَ هنا تتفوق على الأم. بذلك تغدو الحضـارة، وهي البنت، أعمَ من الثقافة، وهي الأم، بما تقدم (أي الحضارة) من منظور إنساني أوفى وأشملَ من عطاءَ أية ثقافة تحديـدا، بمـا فـي ذلك الثقافةُ الأم، التي تحرك المد الحضاري من خبرتها بادئ الأمر. أما حيث يتوافر العلم والتنظيم والإنتاج، وتتخلف الأخلاق، فإن المدَ الحضاريَ سرعان ما ينحسر، ثم بعد حين يرتكس.

يحصل المد الحضاري في ثقافة ما عندما تتعاظم خبراتُها الذاتية من جهة، وتتطعم بخبرات ثقافات أو حضارات أخرى من جهـة موازيـة. وإذ تكتسب ثقافة المنشأ هكذا زخما وصقلا بنماءٍ ذاتي وباقتباسٍ من الغير، تحتل موقع الصدارة بين الثقافات، التي، عند ذلك، تتمحور حولها، تنهل من معارفها، وتتشارك معها تشييد حضارة جامعة.

هكذا تحصل للثقافة العربية عندما تحرك فيها مد حضاري ببزوغ الإسلام، ثم باستقبال خبرات ثقافات أخرى مرت كل منها بخبرة حضارية ذاتية من قبل.

قـبل الإسلام، كانت الثقافة العربية تتمحور حول أعراف تؤكد النسب القبلي وتميز به، وتمكن القوي من الضعيف والغني مـن الفقـير دونمـا وازع خُلقـي. كانت من ممارسات أهلها الدارجةِ الاقتتالُ بأتفه الأسباب، تحقيرُ المرأة، وأدُ مواليد الإناث، ممارسـةُ الـرق في أبشع صوره، وإدمانُ الخمر والميسر. كان لهم أدب خطابة وشعر، نشط وغزير، يمجد هذه السلبيات، وإن كـان أحـيانا يحـذر مـن مغبتها أيضا. ما كانت العرب وقتها في عزلة عن الأمم المجاورة لهم، لكنهم في تفككهم السياسي-الاجتماعي كانوا إزاء تلك الأمم في وضع واهن صاغر. لم يكن في حياتهم أثر للعلم، سوى مهارات بدائية في التطبيب والتنجيم. كانوا متعددي الأديان: يهودا وصابئين ونصارى ومجوسا ومشركين. في مكة كانت قريش مشركة في الغالب، غارقة في وثنية تجحد كرامة العقل.

وسـط تلك الجاهلية جاء الإسلام ليحدث تحولا حق أن نتساءل معه - كما يقول هستن سميث – أستاذ الفلسفة في جامعة أم آي تـي في كتابه "أديانُ الإنسان" – إن كان قد حدث في التاريخ على الإطلاق تحولٌ مماثل، وسط كثرة من الناس مماثلة، في زمـن قصير مماثل. فحيث ساد الاقتتال والعداء أحل الإسلام الصلحَ والإخاء. وحيث فتك الظلمُ والقسوة أرسى العدلَ والإحسان. وحيـث كانت المرأة لا ترث أمن لها نصيبا من الإرث، وحيث كانت سلعةً تُقتنى وتُلفظ، أفرغ عليها حصانة وثبت لها حقوقا لا تمـس. وحيـث هلك المستضعفون بعوز وحرمان فرض لهم حقا في أموال الموسرين. وحيث استُعبد الإنسان وأهين في الرق شـرّع للعـتق سبلا شتى لكي لا يبقى في الرق بعد حين أيُ أحد. ووحد الإسلام العرب، شجب الاستعلاءَ بالنسب، كرم الإنسان، أصّـل المسـاواة، احتكم للعقل، حث على العلم، وندب للتنافس بالبر والتقوى ونَبْذَ التنافس بالإثم والعدوان. تلك، بإيجاز شديد، كانـت معالم التحول الحضاري الذي أحدثه الإسلام في الثقافة العربية يوم أن لامسها فلاءمها مع منهاجه المعني بهداية الإنسان وإصلاح شأنه على الإطلاق.

ثـم إثـر فـتوحات وسعت دار الإسلام وأوجدت ملتقىً لمختلف الثقافات جرى الاقتباس من فارسَ والرومِ ويونانَ والهندِ ومصـر: روافـدُ أثرت الخبرةَ العربيةَ الإسلامية وأجلت أمامها آفاقا معرفية لم يكن للثقافة العربية بها سابقُ عهد. كانت اللغة العربـيةُ ابتداءً قاصرةً في محتواها المعرفي، لكنها كانت قد بلغت مبلغا مرموقا من دقة التعبير. كان للقرآن الكريم فضل عميم في إثراء العربية وصقلها، وكان منه الندب إلى القراءة والكتابة، إلى استزادة العلم، إلى التفكر في النفس والكون، إلى النظر في

سـير الأوليين للاعتبار. ذلك ما حرك في الثقافة العربية دفعا قويا إلى المعرفة، فسعت لها باجتهاد ذاتي وباقتباس مستنير من الغير.

ثـم إذ اكتسـبت الثقافة العربية هكذا زخما معرفيا وافيا في داخلها، بدأت تفرز نتاجا معرفيا زاخرا سرعان ما شمل كافةَ علـومِ العصر. يومها، وعلى امتداد قرون تلت، وُضعت بالعربية من داخل الخبرة الإسلامية أعمالٌ علمية وفكريةٌ كبرى، الأمر الـذي وسـع وعزز قدرة العربية على استيعاب العلوم. في كتابه "مقدمةٌ في تاريخ العلم" يشير جورج سارتن، أستاذُ التاريخ بجامعـة هارفـرد، إلى هذا السبَق المعرفي للثقافة العربية، بقوله: "من النصف الثاني للقرن الثامن وحتى نهاية القرن الحادي عشر، كانت العربية لغةَ العلم، بل لغةَ التقدم البشري على الإطلاق. وعندما بلغ الغرب مبلغا كافيا من الوعي استشعر معه حاجة لعلم أغزر، وجه نظره أولا وقبل كل شيء ليس إلى المصادر الإغريقية، بل المصادر العربية" .

خلال تلك الفترة، يقول فيليب حتي في كتابه "موجزُ تاريخ العرب"، ما وُضع بالعربية من أعمال فلسفية، علمية، تاريخية ودينـية فاق ما وُضع في أية لغة معاصرة. فاق أيضا بكثير ما كان قد ترجم إلى العربية بادئ الأمر: هكذا يكون الاقتباس. لا خير في التقليد، لأنه محاكاة أعمى واعتماد على الغير، دون ممارسة تفكير ذاتي مستقل. أما الاقتباس فهو سنة التدافع الإيجابي بيـن الأمـم. لا حضارة قامت من غير أن تقتبس، ثم أن تنجز فوق ما اقتبست بأشواط. ذلك ما حصل في الثقافة العربية التي شكلت، ولا تزال، المحور المعرفي لحضارة الإسلام.

هـنا أيضـا حق أن نُذهل: ثقافةٌ نشأت أميةً قلما تقرأ وتكتب، عادت لتتصدر العالم في القراءة والكتابة، ثقافة مرجعيتها نقـل عادت لترود في علوم العقل، ثقافةٌ أضحى لبَها، حرفياً، قرآنٌ وكتاب. يومها لم يكن أحدٌ ليستغرب، كما قد نستغرب حصولَ مـثلِه الـيوم، أن معظمَ تلك الكتب – تلك الأعمالَ الرائدةَ في الفلسفة والفلك والرياضيات والطب والجغرافيا والطبيعة والكيمياء والـتاريخ والفقه وغيرِ ذلك – جاءت في العربية من إنتاج علماءَ لم تكن العربية لهم لغةَ أم. لكن لا وجه للاستغراب. العربيةُ يومَها، كما الإنكليزية اليوم، كانت، كما قال سارتن، لغةَ العلم، توسعه وتتوسع به، لذا كانت قبلة العقول من مختلف الثقافات.

كانـت العلـوم تدخل العربية من كل حدب وصوب، فإذا دخلتها واكتست بجمالياتها أضحت أكثر تشويقا لطلبة العلم، هكذا وصـف أبـو الـريحان البيروني (٩٧٣-١٠٤٨)، العالم الفارسي الأصل، تعانق العربية والعلم في عصره. بذلك، وبما أودعت ابـتداءً من أمانة الوحي، ارتقت الثقافة العربية وتصدرت حضارة الإسلام. على مئة ثقافة قطنت بين مشارف الصين وشواطئ الأطلسي، ألقت تلك الحضارة ظلالها الوارفة، ومن عطائها بالعربية، مما نقله الصليبيون معهم من جهة، ومما أتاحه المسلمون في الأندلس من جهة أخرى، كان القبس الذي أضاء لأوروبا دربها بعد ألفية من ظلام.

لم يكن عطاء الحضارة الإسلامية المتدفق على تعاقب أكثر من عشرين جيلا من علماء بحثوا وألفوا في العربية في شتى العلـوم، بعطـاء ضحل أو يسير. لقد كانت ثورة علمية واسعة، عميقة، ومكثفة، لم يشهد قبلها مثلها التاريخ. ولم تكن أسباب انقطـاع ذلك العطاء ذاتية بحتة: لم تكن أسباب تراجع تلك الحضارة، وضمنها الثقافة العربية، تراكم سلبيات داخلية فحسب. ما قصم ظهر الحضارة الإسلامية وبتر عطائها المعرفي كانت، كسبب قاطع، هجمةٌ داهمت من الخارج في شكل زحف منغولي غادر وشـرس. في ١٣ فبراير ١٢٥٨ دخل هولاكو وجنوده بغداد، ولأربعين يوما استباحوا حاضرة معارف الإسلام قتلا وإتلافا: من بيـن ٨٠٠،٠٠٠ بغـدادي قتّلوا سقط آلاف من العلماء. مما أحرقوا كانت مئاتُ ألوف من كتب ألفت وجمعت بجهود مضنية امتدت على قرون. في تدليله على فداحة تلك الخسارة وعمق أثرها في تدمير التراث المعرفي الإسلامي، يلاحظ ويل ديورانت فـي مؤلفه "قصة الحضارة" أن من الكتب التي اعتمرت بها مكتبات بغداد في أواخر القرن العاشر، والتي سجلها ابن النديم في

فهرســه مع أسماء مؤلفيها وسيرهم الذاتية، والذي سلم من التلف لحسن الحظ، لم يصلنا إلا معدل كتاب واحد من كل ألف كتاب ذكره ابن النديم. حقا لم يتلف لحضارة فكر وعلم كما أتلف لحضارة الإسلام.

فــي الخلاصــة نستطيع أن نقول أن الحضارة الإسلامية كانت في أهم محاورها حضارة إيمان وعلم. بالإيمان كان ثبات الصــالحين مــن أبــناء الأمة على مبادئ الإسلام وقيمه، به كان جهادهم ضد الظلم، وبه أيضا كانت دعوتهم لأقوام أخرى إلى الإســلام . مــن حب العلم كان اندفاع المستنيرين منهم إلى اكتساب المعرفة والتوسع في مختلف فروعها، ومنه كانت جهودهم المــبدعة فــي البحث والترجمة والتأليف. كان هذا بالرغم مما استشرى في تلك القرون الأولى من فساد إداري، فتن دموية، وعصــبيات قبلية وطائفية عاثت كثيرا من خراب. مع ذلك استمرت الحركة العلمية باندفاع مستقل: استمرت بالرغم من عزوف مزمن عن الشورى، وابتلاء خانق بالاستبداد – ابتلاء طبّع فردية الحكم وكرسها حتى أوصلها وألصقها بواقع حياتنا اليوم. لقد أفرغــت الخــبرة الإســلامية في تلك القرون الأولى، أو كادت، من أهم ما أصله الإسلام في العدل والمساواة وكرامة الإنسان: أفرغت إلا من إيمان المؤمنين وجهود عشاق العلم. ثم إذ تراكمت السلبيات، وتفاقم الضعف، لم يسعف الأمة تقدُمها في العلوم، فخــارت أمام هجمة المنغول. عبر قرون تلت، ازداد الحال سوء، فضمر الإيمان وطغى حب السلطة، وغيض العلم وطفح الجهل، لحــد مرهق معيق. بذلك تراجعت الحضارة الإسلامية بشكل سريع وسافر، وضمنها تراجعت الثقافة العربية. حبل ذلك التراجع، إسلاميا وعربيا، لا يزال ملقى على غارب التاريخ لليوم.

<u>هل يمكن أن توجد تعددية ضمن الثقافة الواحدة، وإذا وجدت، كيف يكون التعامل معها؟</u>

تتعدد الأعراق والأديان والإيدوليجيات في الغالب ضمن الثقافة الواحدة، كما هو الحال في الثقافة العربية وثقافاتٍ سواها، لكن التعاملَ مع التعددية يتراوح من ثقافة لأخرى.

فــي شرح ذلك، دعنا نفترض وجود ثقافتين: ثقافةٌ تنزع لتأكيد الاختلافات بين أهلها دون احتفال يذكر بالمحور الثقافي المشــترك، وأخــرى تميل لتعزيز المحور الثقافي المشترك بين أهلها، واعتبارِ الاختلافات بينهم ظاهرة طبيعية لا تعوق التضامن ولا تفسد الود.

فــي الــثقافة الأولــى تغــدوا التعددية مشكلة شائكة مستديمة من حيث أن الناس، بنمطية غالبة، لا ينقطعون عن إثارة حــزازات طائفــية وفئوية تولد آثارا اجتماعية سلبية، وتؤدي مرارا إلى صراعات مرهقة. أما في الثقافة الأخرى، فيغلب نمط الــتعايش والــتعاون، فــلا يــرى الناس الاختلافاتَ ما بينهم إلا أمراً قليلَ الأهمية نسبةً إلى أهمية الحفاظ على العيش المشترك ورعاية الصالح العام.

الــثقافة الأولــى، بتعاملها السلبي مع الاختلاف، تحول الاختلاف إلى خلاف يضعف المجهود الوطني. الثقافة الأخرى، بتعاملها الإيجابي مع الاختلاف، تخضع طرفية الاختلاف لمركزية الصالح العام، وبذلك تحرز تقدما وطنيا مطردا بالرغم من وجود الاختلاف.

فــي الــثقافة العربــية – على ما انحرفت إليه – تغلب السلبيةُ على التعامل مع الاختلاف، فتحول جله إلى خلاف. من إفــرازات ذلــك مــا نرى اليوم من تصادم خصوصية القطر مع عمومية الأمة، تغليبِ النفعِ الخاص على الصالح العام، تسليطِ الطائفــيةِ علــى المواطــنة، وإعــلاءِ العصبيةِ القبلية – وما تُبنى عليها من امتيازات أرستقراطية فاحشة – على مبدأ تساوي المواطنين كافة أمام القانون.

هـذا عـوَج تراكم أثره، ووجب تقويمه، ومن عناصر تقويمه أن ندرك أن السبب في إحباط العمل التضامني العربي هو نزوعنا في الغالب إلى حمل ما هو انقسام في الرأي على أنه انفصام على المبدأ، ما هو اختلاف في الفروع على أنه خلاف على أصـول. لا تخلـو ثقافة من تعددية الرؤى واختلاف النظر والتقييم. لكن الثقافة الراجحة هي تلك التي تعرف كيف ترتكز في الوسـط وتتثبـت عند الأصل، ومن الوسط والأصل كيف تدير تفرع الاجتهاد. إنها بالأحرى، من خلال حوار حر، تستخرج من تعددية الرؤى أوفق الحلول. ولعل ذلك ما تذهب له الإشارة في الحديث الشريف: اختلاف أمتي رحمة.

خلاصـةً، لا تزدهـر ثقافة بدون أن ترتكز في وسط تدين به وتحتكم إليه الأطراف. لا ثقافة تنمو من حال يعمق أزماتنا خلافـا يسهم في إضعاف الوسط وتقوية الأطراف. التعددية نعمة إذا تماسكت مع الوسط، ونقمة إذا انفصمت عنه. الوسط أمان إذا راعى التعددية، وعرضة للاضطراب إذا كبتها فحملها على الانفلات. الثقافة الحية تسع، برشد وتبصر، لوسط راكز وتعددية نشطة معا في آن واحد.

<u>هل نحن – في غد قريب أو بعيد – أمام ثقافة معولمة؟</u>

مـا أراه واردا في الاحتمال، هو تبلور حضارة إنسانية جامعة تحتضن تعددية الثقافات. أرى ذلك من خلال ما أرصد من توافـق متنام يحصل بين اهتمامات الأمم، توافق يدفع نحو مماثلة الأنظمة السياسة والمدنية والقضائية وأعراف التعامل الدولي، مـن جانـب، ومماثلة أنظمة العيش والعمل من جانب آخر، كأنظمة الإدارة والإنتاج والتجارة والتنمية والتعليم والتواصل وسواها من ابتكارات هذا العصر.

من هذا المنظور لا أرى اضمحلالا للثقافات، وإنما تفاهما وتقاربا متزايدا ما بينها في ظل حضارة جامعة. هنا أرى أيضا فرصـة أمام مختلف الثقافات أن تسهم كل منها بما لديها في جعل حضارة الغد حضارة مستقرةً في مبادئ وقيمٍ خلقيةٍ عالمية، وملـتزمةً بمقاصدَ عليا تهم البشريةَ جمعاء: مثلَ ضمانِ حقوق الإنسان، حفظِ الأمن، نشرِ العلم، تحقيقِ اليسر المعيشي، حفظِ البيئة الطبيعية، توفيرِ العناية الصحية، وسواها من أمورٍ حيوية لجميع الشعوب.

بـتوازٍ مع وحدة المبادئ والمقاصد، أمام الثقافات فرصةُ أن تصوغ حضارة الغد صياغة تجعلها تستوعب وترعى تنوع خبرات الشعوب. فمع أن حالَ الإنسان في جوهره حالُ واحد، وهو الفطرةُ التي فطر اللهُ الناسَ عليها، إلا أن من اقتضاء مشيئته – جل وعلا – أن تتنوع من الفطرةِ الواحدة خبراتُ البشر، وأن ينشأ من التنوع تعارفٌ يفرز خير ما يحققه الأنسان. إن تاريخ الحضـارات، من حيث نهوض كل حضارة بدفع من حضارة سبقتها، يشهد لمثل هذا التدافعِ الإيجابي المتواصلِ بين الحضارات. هكـذا جـرى التدافع في التاريخ حتى اليوم. أما في الغد، فسياق ارتقاء الإنسان في وعيه وخُلُقه يبشر بتبلور حضارة إنسانية واحـدة، تـتدافع على ريادتها ثقافات متفوقة، كل تتصدر لتصب في خبرة حضارية مشتركة ما ابتكرت من أسباب مزيد من تقدم ورقي.

الـثقافة العربـية، بمركـزية موقعهـا في حضارة الإسلام، تأتي برصيد وفير يؤهلها أن تشكل رافدا عظيما من روافد حضارة جامعة في غد الإنسان، لكن ليس من حال ركودها – بالأحرى رقودها – الحالي. لكي يكون للثقافة العربية إسهام جدير لا بد لأهلها أن يُحدثوا أولا تحولاً ذاتيا في ثلاثة أمور:

*عليهم أن يزيلوا التجزئة ويوحدوا الوطن.

*عليهم أن يشبوا عن طوق أنظمة سياسة منقوصة، ويرتقوا إلى نظام ديمقراطي واف ومكين.
*عليهم أن يركزوا على اقتباس معارف العصر، وينتهجوا المنهج العقلاني في تدبير الأمور.

بالوحدة ينشأ للعرب مجتمع كبير، متواصل، ومنيع، ويتحقق واقع وطني أوفى استظهارا لنبوغ وقدرات أمة ذات ثقافة ثرة وحضارة مشهودة في التاريخ. بالديمقراطية – أو الشورى الحقة إن شئت – يستقيم المحور السياسي في الحياة العربية، هذا الذي اعوجّ قديما ولما يستقم، فتُوقى الأمة شرور الاستغلال والاستبداد. بالتقدم العلمي والاجتهاد العقلاني تتحصن الأمة بقدرة على الإنتاج والإبداع، وبمناعة ضد خبط وخلل.

نعم، أعلم أن هذه أمور تُحسب شبهَ مستحيلة، لكن المستحيل حقاً هو أن يكون لأيما أمة انتهاض بغير توحد، عدالة بدون ديمقراطية، تقدم بدون علم، وحسن تدبير للأمور بدون احتكام للعقل. من فضل الله على الناس أن أودع فيهم قدرات فائقة على إصلاح الذات، إذا هم جاهدوا لأجل الإصلاح: قدرات تُقلب ما يبدوا مستحيلا إلى ممكن. لا يوجد حد أسفل يستعصي منه النهوض لفرد كان أو أمة: "قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله..." يقول القرآن المبين. ويُنبئ: "الذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا...". وتقول حكمة شائعة: "من جد وجد، ومن سار على الدرب وصل".

<u>هل يوجد فرق بين القومية العربية والثقافة العربية، وما خطاب الإسلام إزاء ذلك؟</u>

في بداية هذا العرض قلت أن الثقافة والعرق، كاثنين من مكونات هويةِ المرء، في العادة يتلازمان. ما أستدركه بإضافةٍ مهمة هنا، هو أن الثقافة في ارتقائها إلى حضارة، تُضعف هذا التلازم، وتعلو على العرق، بل وتُبطل العرق كعامل تمييز في الحقوق والواجبات. المجتمعات الوطنية المعاصرة في الغالب متعددة التركيب عرقيا، وموحدة الثقافة، وبوحدة الثقافة، لا بتعددية الأعراق، هي تعزز وطنيتها وتخطو إلى أمام.

الثقافة العربية، يوم أن تحضرت بالإسلام، خفضت العرق وأعلت المبادئ والقيم. إثر فتح مكة، أعلن الرسول الأعظم الفصم بين الماضي الجاهلي المؤكد لعصبية العرق، والحاضر الإسلامي المثمن كرامة الإنسان. دعا النبي العربي قومه إلى ترك الاستعلاء بالنسب، وأصل بينهم المساواة. "يا معشر قريش، قال مخاطبا قوْما ما عرفوا قبلاً سوى العصبيةَ القبلية قاعدةً للحياة ... "يا معشرَ قريش: إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء. الناس من آدم وآدم من تراب".

ثم في حجة الوداع، يوم أن أحس ضعفا يدب في بدنه وأجلا يسارع إليه، عاد المصطفي يذكر ويؤكد: أيها الناس إن ربكم واحد وأباكم واحد ... كلكم من آدم وآدم من تراب. لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى.

بذلك أخرج نبي الإسلام قومه من عروبة عرق إلى عروبة ثقافة رحبة، متوائمة مع عالمية الإسلام وإنسانية مقاصده. بذلك أهل العروبة لتكون الثقافةَ المركزيةَ في الإسلام، لتكوّن أمة وسطا شهيدةً على نفسها قبل أن تكون شاهدة على الناس، لتسلك بذلك مسلكَ القدوة بين الأمم. قبل ذلك وصف القرآن الكريم نفسه مكررا بعربي، لا انتساباً لعرق، ولكنْ اتصافاً بثقافةٍ جديرة خيرة.

نعم، في قرون تلت، وطالت، كما أشرت، ران على هذه الثقافة من داخلها، وداهمها من الخارج، ما أقعدها عن مواصلة التقدم. حدث بها ولها ما أوهن كيانها، لوث خبرتها، عطل طاقاتها، بدد مواردها، وأجرى فيها الفساد. في حاضرها اليوم يوجد ما يُعطب حالها، يُشوه سمعتها، ويُثقل كاهل شعوبها بأوضاع رديئة ورزايا تدك العظم. لكن من وراء ذلك كله العروبةُ

ثقافةٌ جديرةٌ خيرة. من حظوظي في هذه الحياة أن نظرت في طياتها، وما أجد ينبئني عن سمينٍ أكثر كثيراً من غث، عن طيبٍ أكثر كثيراً من خبيث، عن صالحٍ أكثر كثيراً من طالح. حريٌ بهذا السمينِ والطيبِ والصالحِ أن يُستظهر، وخليقٌ بعرب هذا العصر أن يدَعوا الزبَدَ يذهبُ جفاءً ويُعنوا بما ينفع الناس. لا تتقدم ثقافة، بل لا تتحرر، دون أن تتجاوز سلبيات ماضيها، ودون أن تستحضر إيجابياتٍ انبنتْ فيها من قديمٍ، فتعودُ تبني بها من جديد. ولو أن كل جيل في أيما ثقافة كبّل نفسه بتبعات أجيال خلت، وأهمل ما بنت، لما خطت أمةٌ خطوةً إلى أمام.

كلا، لا يوجد فرق بين القومية العربية والثقافة العربية، فهما حال واحد منذ أن تحضرت العروبة بالإسلام: المتشخصُ بأيهما متشخصٌ بالآخر. العروبةُ قوميةٌ ثقافية بقدْر ما هي ثقافةٌ قومية. لا توجد ثنائيةٌ في هذا التعريف، بل عرضٌ لوجهين لعملة واحدة.

أما الإسلام فهو المضمون الحضاري للثقافة العربية، أنبتها نباتا حسنا، حثها على طلب العلم، وألزمها بالتخلق بمكارم الأخلاق. ما اشترط الإسلام للعروبة دينا ولا عرقا، وما سنّ فيها طبقية تعلي أحدا على أحد، أو قوما على قوم. في يثرب بعد الهجرة إليها بأيام، طبق النبي دستورا لمجتمع متعدد الأديان، موحد الإنتماء لأمة واحدة. في تلك الأمة تساوى الناس، فما عاد فيهم صاحب جلالة أو سمو أو فخامة أو معال أو سعادة أو عطوفة أو سماحة أو قداسة. في تلك الأمة رقع القائد بيديه ثوبه، خصف نعله، كنس داره، حلب عنزته، أكل الطعام ومشى في الأسواق مثل سائر الناس. في تلك الأمة رُفع التواضع وأدين التكبر، حُمد الاقتصاد وذُم الإسراف، أمر بالعدل والإحسان وصلة الرحم، وحُث على التراحم والتعاون. في تلك الأمة صرف القائد مما له قليلا على نفسه أسرته، كثيرا على من ألفاهم أحوج منه. في تلك الأمة غدا القوي ضعيفا على باطل، والضعيف قويا على حق. في تلك الأمة غدا سلمانٌ الفارسي "منا أهل البيت"، وصار بلال، على لكنته الحبشية، المؤذن للصلاة في وسط أفصح الناس. هكذا جرت تربية العروبة إسلاميا على يد النبي الكريم.

ما دور المثقفين العرب في إحياء الثقافة العربية؟

إحياءُ ثقافة أمة ما لا يجري خارج إطار إصلاح وضع تلك الأمة وتفعيل إمكاناتها. لقد جاء تراجعُ الأمة العربية وانحسارُ ثقافتها ضمن تراجع الخبرة الإسلامية عامة، وفي الأهم جاء مُسبَبا بثلاث: بتجزؤ الوطن، بهجر الشورى، وبالانصراف عن الاجتهاد المعرفي إلى مجرد التفقه في الدين. إعادةُ بناء وضع الأمة وإحياءُ ثقافتها يتطلب – في المقابل – نقضاً لعناصر التراجع: يتطلب تحديدا – كما قلت – توجيهَ الأمة وجهةَ الوحدة والديمقراطية والتقدم العلمي.

ذلك بدوره يتطلب ريادةً تاريخية فائقة من المثقفين العرب، بل ويتطلب منهم تثبتا شجاعا في الصدق والصبر واللاعنف عبر جهاد مُضن ومديد. كما في حال أية أمه، إصلاحُ شأن الأمة العربية وإحياءُ ثقافتها لن يأتي على يد حكامٍ مرفهين لا تعنيهم الثقافة، ولا يرغبون في الإصلاح. في المقابل، لا أتوقع أن تُحرك مطلبَ الإصلاح والاحياء الثقافي جماهيرٌ يكبُتها قهرٌ سياسي ويشغَلها همُ لقمة العيش. إصلاحُ الحال العربي سياسيا وثقافيا – إذا أردنا الإصلاح – أجدر أن يأتي على يد مثقفي الأمة، الذين أوتوا يُسرا في المعاش، دراية في الأمور، وقدرة على التأثير من موقع وسط لهم في الحياة الوطنية.

إن تاريخ البشرية ليس تاريخ أمم أو أوطان بقدر ما هو تاريخ حضارات، يستخلص آرنولد توينبي في كتابه "دراسة في التاريخ". كل حضارة على ما يرى تواجه عاجلا أو آجلا تحديا يتهدد بقاءها، وعندئذ يتقرر مصير الحضارة بالكيفية التي تتعامل نخبها المثقفة مع التهديد: إما صداً له وتغلباً عليه، وإما تخاذلاً أمامه واندحاراً به. يلاحظ أيضا متفحصاً مختلف الحضارات

التـــي سادت زمنا ثم بادت، أن التحديات أمام أية حضارة تتغير بتغير الأزمنة والظروف، وأن من الممكن أن تواصل حضارة ما نجاحها لأمد طويل ثم ترتكس بسبب عجز جيل أو أجيال عن مواجهة تحدٍ جديد.

لا أخـــال أن هذا الجيل من العرب يرضى أن يسجل على نفسه تعاجزا أو تخاذلا أمام ما تواجه الأمة العربية وثقافتها من تحـــدٍ خطير. لا أظن أن هذا الحشد من الكفاءات العربية تنقصها الجدارة لإحداث تحول نوعي في الحياة العربية. ما أخاله هو أن المثقفيـــن العرب، في كل أقطار العروبة، ما عادوا يرون أن في عاتقهم، كأمر مباشر، ريادة مهمة الإصلاح. الحكومات هي المســـؤولة عن تردي الأوضاع، ومن ورائها القوى الخارجية الكبرى، تسمعهم يرددون في وجه كل مؤاخذة وانتقاد. ثم تجدهم يعودون ليخدموا نفس الحكومات التي يحملونها مسؤولية تردى الأوضاع، وتجدهم يتبارون في إرضاء الحكام.

هو خداع للنفس أو إيثار للعافية في أحسنه، وهو مهلكة للأمة في أسوئه، إذا أعفى المثقفون العرب أنفسهم من مهمة الإصـــلاح. فـــي عاتقهم، في التحليل الأخير، – في عاتقنا بالأحرى – يقع واجب الريادة نحو مستقبل عربي أوفى وأفضل. لقد قالت العرب قديما أن الرائد لا يكذب أهله، والمثقفون، لا الحكام، هم رواد الأمم، وعليهم تعقد الآمال.

فـــي عاتقنا إذن أن ننهض بالأمة العربية سياسيا وثقافيا نهوضا يفعل خير ما فيها، وهو كثير، ويُركِد أسوأ ما بها، وهو لـــيس بأكـــثر مما لدى أمم أخرى استطاعت تجاوز سلبيات ماضيها، إعادة ترتيب أحوالها، والالتحاق بركب التقدم الحديث. فإذا نهضنا بأمتنا هكذا نهوضا مترشدا بمعرفة ومنطق وخلُق كريم، نهوضا يصبو ويعمل لأجل الوحدة والديمقراطية والتقدم في العلم والإنـــتاج، عـــادت لنا حياة قومية زاخرة بعناصر صلاح ونماء، وعادت لنا ثقافةٌ كان لها، ويمكن أن يعود إليها، دورٌ حضاري رائـــد مـــن جديـــد. عندئذ سيتاح لأمة تتوق للتقدم أن تخطو خطوات صلبة وصائبة إلى الأمام... أن تقترب حثيثاً من جدارة أمة وصفت يوما ب "خير أمة أخرجت للناس"

==========

ردود أخرى:

*ماذا يفسر تراوحنا في المكان؟

التراوح في المكان في الخبرة العربية المعاصرة يعود لثلاث قناعات خاطئة، أقنع المثقف العربي بها نفسه على صعيد تفكير فردي وجماعي.

القناعة الأولى تنشأ من إحباط، يستبطن خطابا يقول: نحن لا نستطيع مجاراة العصر في تقدمه، بعد أن أضعنا فرص التقدم التي أتيحت لنا خلال القرن المنصرم. فوق ذلك، التقدم يطالبنا بالتحول عما نحن عليه من عادات وأعراف سياسية واجتماعية، قد تكون عتيقة وبالية، لكننا نشك في استطاعتنا التحول عنها بعد إدمان مزمن. الأحرى بنا إذن – تسترا على العجز – أن ننتقد العصر وننتقد المتصدرين لمسيرة التقدم فيه. في الوقت نفسه، كأمر عملي، لا بأس أن نستفيد ونستمتع بمنتجات وخدمات هذا العصر، المبتكرة والمنجزة بعقول وأيدي الآخرين.

القناعة الثانية تنشأ من تهيب أمام جديد الفكر، يستبطن خطابا يقول: نخشى مخاطرة الخروج من وصاية النقل إلى منهج العقل، ومن يسر المسايرة إلى عسر المواجهة. لقد انفصلنا عن المنهج العقلي منذ قرون، ولم نمارس تفكيرا حرا منذ أجيال. لقد

فقدنا القدرة على الاجتهاد المعرفي، واعتدنا إيثار العافية في جل الأمور. نخشى إذا ما انصرفنا عن هذا وذاك أن نضيع أو نضطرب.

القناعة الثالثة تنشأ من تلمس العذر للنفس، وتستبطن خطابا يقول: نرى الحاجة للإصلاح، لكننا لا نثق بمقدرة هذه الأمة على تحقيقه، ولا بإخلاصها لمقصده. من وجه آخر، الأنظمة الحاكمة، وهي شديدة المعارضة للإصلاح، منيعة، عنيفة، ومحمية من الخارج. لذا لا طائل من محاولة الإصلاح. لذا أيضا لا بأس من التعايش - مهما طال الأمد - مع الخلل والفساد وهدر الحقوق.

حقا إن أشد ما يكبل المرء اعتقاده أنه مكبل.

*كيف يستقرأ حالنا من الخارج؟

مصداقية الأمة العربية وجدارتها الحضارية في نظر أمم العصر تقاس بمقدار ما يتحقق في خبرة هذه الأمة ذاتيا من إصلاح سياسي وتعزيز لمعالم المجتمع المدني. أمم العصر، إذ هي تدرك التناقض الحاصل بين ما كان لهذه الأمة بالأمس من سبق حضاري، وما عاد لها اليوم من تخلف مركب، ترصد ما يجري في الخبرة العربية لترى ما إذا كان المثقفون العرب يحركون مسار أمتهم نحو حياة وطنية أوفى وأرشد، أم يؤثرون مسايرة أنماط سياسية-اجتماعية لا محل لها من رشد. أمم العصر ترصد تحديدا هل ستتجمد الخبرة العربية عند فردية الحكم، أو عند نماذج منقوصة أو متكلفة من الديمقراطية، أم أنها مع سياق العصر ستتجاوز ذلك إلى تحقيق ديمقراطي واف وسليم. ذلك أن البقاء على الوضع الأول يشوه خبرة الأمة ويربكها من الداخل، وبذلك يقعدها عن التقدم. أما الحال الآخر فيرسيها على مسار إنساني صحي وسليم، وبذلك يطلق فيها إمكانات التقدم والنماء. أمم العصر ترصد لترى هل تتعامل مع العرب كأمة ناهضة متضامنة، أم كأمة موهنة بالتجزئة ومراوحة في المكان.

*هل نحن ثقافة واحدة، أم ثقافات متعددة؟

دعني أروي شيئا لعله يكون من باب ما قل ودل إجابة على هذا السؤال. في حفلة عيد وطني سابق لعمان التقيت بشخص أمريكي بادرني بالتحدث بالعربية الفصحى. طبعا سُعدت أن أسمعه مجيدا للتعبير ومتقنا للإعراب. قلت له مداعبا: لعلك تعبت على تعلم لغتي بمثل ما أنا تعبت على تعلم لغتك، وفي ذلك عين الإنصاف. ثم سألته: لماذا عُنيت بالفصحى بينما العامية على ما يشاع أسهل منالا للغريب. لاحظ لي هذا الأمريكي أمرين ما كنت أجهلهما، لكنني أكبرت فيه إدراكه: قال لي أن للعربية الفصحى منطق في الصرف والنحو إذا أتقنه المرء ملك ناصية اللغة وأتيح له أن يتوسع في فهم مدلولات ألفاظها المشتقة في الغالب من جذور مشتركة. وأردف: هناك سبب آخر: أيسر وأجدى لمتعلم غريب أن يتعلم فصحى تحكى وتكتب وتفهم عبر العالم العربي بأسره، من أن يتعب على عشرين لهجة تحكى ولا تكتب ولا تفهم تماما خارج إطارها القطري.

ترى ألا تدلل هذه القصة على أن الناظر لنا من الخارج لا يزال يرانا ثقافة واحدة حتى بعد أن تبعثر واقعنا في عشرين دولة، عشرين وزارة ثقافة، عشرين لهجة عامية؟

*كيف يتعامل المجتمع الأمريكي مع التعددية الثقافية؟

هنا في أمريكا لا تطالَب الثقافات المتعددة المشاركة في الخبرة الوطنية بأن تصفي أو تذيب نفسها: هي بالأحرى مدعوة لتسهم بأحسن ما فيها في صنع الخبرة الأمريكية المعاصرة التي تصاغ منها وتتجدد بها الثقافة الأمريكية على نحو مطرد. ولأن الثقافة

العربية لم يصنعها قطر عربي معين، بل صُنعت من خلال خبرة عربية جامعة وعريقة، فإن العربي الأمريكي أو المقيم مؤهل لإسهام جدير إذا قدم إسهامه من عمومية ثقافته العربية، وليس من خصوصية القطر العربي الذي وفد منه، لأن كل قطر عربي – بصرف النظر عن حجمه وإمكاناته – لا يعدو كونه جزأ من كلٍ تاريخيٍ ثرٍ، متلاحم، ووسيع.

*كيف تفهم أو تمارس المواطنة في الخبرة العربية

في الماضي طغى مفهوم "الرعية" في العالم يغذيه ادعاء كاذب بتبعية الشعوب للحكام. حصل هذا أيضا في الخبرة العربية الإسلامية، مع أن الإسلام أصل منذ البدء مبدأ ولاية الأمة على نفسها، ومبدأ تساوي أبناء الأمة أمام القانون. الآية الكريمة: "المؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض..." ، والحديث الشريف: "كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته" يؤكدان اعتبار الإسلام الوظيفة السياسية الاجتماعية أمرا مشتركا ومتبادلا بين الناس. في المفهوم الرعوي، على نقيض ذلك، يُزعم أن الأمر العام مناط أصالة بشخص الحاكم، ومن ذلك يفرض على الناس للحاكم، لا لدستور أو قانون، ولاء وطاعة. في المفهوم الرعوي لا يكون الحكم شورى بصدق، بل تركة تتوارث، وما لم يُنتزع بالقوة، يبقى حكرا على شخص بعينه وحصرا ضمن أسرة دون سواها لمدى مفتوح.

لتعارض المفهوم الرعوي هذا مع كرامة الإنسان، عزفت عنه شعوب العالم إلى مفهوم هو أجدر بكرامة الإنسان: مفهوم المواطنة. في مفهوم المواطنة، الشركاء في الوطن الواحد يشكلون مجتمعا واحدا يتساوون فيه ما بينهم في الحقوق والواجبات. في مجتمع المواطنة لا أحد يعلو على القانون، ولا أحد يعلو على أحد آخر أمام القانون. في مجتمع المواطنة لا يختص بعض بامتيازات دون سائر المواطنين، ولا تشرع أسبقيات سياسية أو مالية على أساس نسب قبلي أو وجاهة من أي نوع. في مجتمع المواطنة لا شرعية لسلطة عامة على أي مستوى إلا أن تكون موكولة بانتخاب حر أو مستمدة ممن تولاها بانتخاب حر. واضح، طبعا، أن الحال في المجتمعات العربية لا يزال أقرب إلى المفهوم الرعوي منه إلى مفهوم المواطنة. واضح أيضا أن هذا الحال قليلا ما يقلق المثقفين العرب.